

التأويل المعاصر، خلاصة الأركيولوجيا

د/ العايب ربيع

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

ورقلة، الجزائر

تاريخ النشر: 2023/12/30	تاريخ القبول: 2023/11/22	تاريخ الإرسال: 2023/11/04
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

بعد أن عرفت ستينات القرن الماضي سيطرةً للمنهج الأركيولوجي، دفع هاجس الحقيقة بالفيلسوف الفرنسي ميشيل فوكو منذ بداية السبعينات إلى تخطي هذا المنظور البنيوي، واستثمار المنهج الجينيولوجي الذي مثل في "جينيولوجيا الأخلاق" عند نيتشه، فنًا في التأويل أو تقنية لقراءة نص الخطاب. سيكون منظور فوكو للتأويل أحد هذه التبعات، كما سنقف معه على قراءة جديدة في التعامل مع الخطاب وهي قراءة ساهمت في تشكيلها الحركة التأويلية بكاملها، وإن كان "فوكو" يقر بتأثير نيتشه على أفكاره فإنه لا ينكر تأثير "جيل دلوز" فيه من بين كل المعاصرين له. لكنه يعترف أن نيتشه هو الذي تغلب في نهاية المطاف. فإذا كانت مفاهيم الفلسفة النيتشواوية ذاتها ترفض وجود تأويل واحد ونهائي لنص الطبيعة أو نص الأخلاق، فإن مفهوم التأويل عند فوكو يبتدئ في صورة مختلفة، تتمثل في فضح وتحطيم الحجب وإزالة للأقنعة بصورة لا محدودة... وهي مفاهيم تنصب كلها عند نيتشه على النص.

الكلمات المفتاحية: التأويل المعاصر-ميشال فوكو-نيتشه- الأركيولوجيا- الجينيولوجيا

Abstract :

After Sixties of the last century defined the dominance of the archaic method, French philosopher Michel Foucault's obsession with truth pushed him from the beginning of the seventies to move beyond this structural perspective, and to invest in the genomic approach that represented Nietzsche's "Genealogy of Morality", an art of interpretation or a technique for reading the text of the speech.

Foucault's perspective of interpretation will be one of those consequences. We will also agree with him on a new reading in dealing with speech, which was formed by the entire interpretative movement. If Foucault recognizes the influence of Nietzsche on his ideas, he does not deny the influence of the Doloz generation on him among all his contemporaries. But he admits that it was Nietzsche who ultimately prevailed. If the concepts of the Neichtchaic philosophy themselves reject the existence of a single and definitive interpretation of the text of nature or the text of morality, the concept of Foucault's interpretation begins in a different form, exposing, breaking the veil and removing the masks in an infinite way... All of these concepts are centered at Nietzsche on the text.

Keywords : Infinite Interpretation - Contemporary Interpretation - Michel Foucault - Nietzsche - Archaeology - Genology

مقدمة:

تراهن العلوم الإنسانية معاصرا على تحقيق وثبات نمائية، تنمة لمشروع تقديمي إبستيقي، تاليا لمنطق الثورات العلمية السابقة على مستويات العلوم الفيزيائية والرياضية. وأخص ما اهتم لشأنه علماء وفلاسفة العلوم الإنسانية تلك المراجعات الميثودولوجية، التي استوجبت إدراك اختلالات بحثية عديدة في حقول الدراسات الإنسانية والاجتماعية. وإحدى المشكلات البحثية في راهن العلم هي مسألة التأويل، أو ما يصطلح عليه بالخطاب الفلسفي الهيرومينوطيقي. فإذا كان الفكر الغربي قد حفل بتطورات يعتد بها حديثا خلال القرنين السابع والثامن عشر، فإنه قد لم يحفل كثيرا بفلسفة التأويل التي عرفها القرن السادس عشر، وإذا كان النقد الذي وجهه (بيكون) و(ديكارت) للتشابه قد لعب دورا كبيرا في وضع تلك التقنيات بين قوسين، فإن القرن التاسع عشر قد أبان بجلاء ضرورة انتهاز العقل إمكانية أخرى للتأويل، وعلى الأخص ما نستنبطه من أعمال ماركس ونيتشه وفرويد، ثمة إمكانية قيام تأويل جديد، تأويل يجعل التأويل المعاصر يبتعد عن كل تأويل ينحلّ إلى شرح وتفسير وكشف عن البواطن، وينفصل عن أحادية المعنى وأوليته وواحديته، وينفتح على آفاق لا حصر لها، ممّا يجعل ميزة التأويل المعاصر تأويلاً لا نهائياً.

إن محاولة ميشال فوكو تبدو متجهة إلى تجذير التقنية التأويلية في فضاء يتعدى القرن العشرين قرن التأويلات عند غادمير رجوعا إلى ريكور وهيدغر، ويتعدى القرن التاسع عشر ومآثر دلتاي وشلاير ماخر... وغيرهما إلى القرن السادس عشر، الذي عرف قبل ذلك نمطا من التأويل يُعنى بإيجاد صورة التناسق العميق والخفي الكامن خلف المظاهر المتشظية لعالم الظواهر، ولقد أفرز هذا النمط من التأويل منظومة نعتها فوكو بمنظومة التشابه التي تتظافر فيها وفي انسجام عميق خمسة مفاهيم هي: التلاؤم والتعاطف والتوازي والأثر والتجانس.

سنقف في هذه المداخلة ضمن فعاليات الملتقى الدولي الأول الموسوم: "بالدرس التأويلي في الخطاب الفكري والنقدي المعاصر من الدين إلى الفلسفة إلى النقد" مع قراءة جديدة في التعامل مع الخطاب، وفق رؤية اركيولوجية فوكاوية، متأثرة بالمنهج الجينيالوجي، وهي قراءة ساهمت الحركة التأويلية برمتها في تشكيلها، يعترف فيها فوكو بأثر "نيتشه" عليه من بين السابقين إلى جانب هيدغر، وتأثير جيل دلوز من بين المعاصرين له؛ إذ يقول في آخر حديث أجري معه نشر بعد وفاته: إن مصيره الفلسفي، كان محددا بقراءة "هيدجر" لكن "نيتشه" قد استأثر باهتمامه في الأخير.

لهذا تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز الطابع النيتشوي في فلسفة "فوكو" وتحديدًا في رؤيته للتأويل المعاصر. إذ أن "نيتشه" بالنسبة لفوكو ليس مجرد فيلسوف معاصر وصاحب منهج جديد في التأويل ساهم في صياغة أسئلة الفلسفة ورهاناتها وأعاد بنائها فحسب؛ بل يعد أحد الثلاثة الذين قلبوا جذريا نظام التأويل ذاته في الفكر الغربي، إلى جانب كل من "فرويد" و"ماركس"، الذين يعتبرهم "فوكو" في كتاب "جينياالوجيا المعرفة"، قد غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل وبدّلوا الكيفية التي بإمكان الدليل أن يؤوّل بها وأعطيت الأولوية للذات، فهي التي تتجه نحو النص لإنتاج نص آخر أو اكتشاف معنى مخفي وراء النص الأصلي.

وعليه تهدف هذه المداخلة إلى إثارة جملة من التساؤلات الرئيسية، حول موضوع الدرس التأويلي في الخطابات الفكرية الغربية من منظور أركيوجينياالوجي، لاستجلاء علاقة التأويل بالمعرفة وفكّ غموض العالم وتمثّل الأشياء كما يتصوره فوكو أركيولوجياً. لهذا نتساءل: كيف أثر جينياالوجيا نيتشه في مفهوم فوكو للتأويل والتأويل المعاصر؟ ما الذي يميز التأويل المعاصر عن التأويل الميتافيزيقي؟ وكيف أفرز تداخل المنهج الجينياالوجي والاركيولوجي مفهوم التأويل اللانهائي، الذي عدّه فوكو مقصداً للتأويل المعاصر؟

أولاً: الجينياالوجيا والتأويل:

لم ينكر "فوكو" *Foucault Michel* (1926 - 1984) أبداً صلاته المتعددة والقوية بفلسفة "نيتشه" *Friedrich Nietzsche* (1844 - 1900)، الذي خصص له نصين من أهم نصوصه الشهيرة، بل اعتبر أعماله كلها تتبع خيطاً موحها رسمته جينياالوجيا نيتشه، يقول في آخر حديث أجري معه وقد نُشر بعد وفاته: إن مصيره الفلسفي، كان محددًا بقراءة "هيدجر" *Martin Heidegger* (1889-1976)، لكنه يعترف أن "نيتشه" قد استأثر في الأخير باهتمامه ويضيف مؤكداً "أنا ببساطة نيتشوي أحاول بقدر الإمكان أن أرى بخصوص عدد من النقاط - بمساعدة نصوص نيتشه- ولكن مع ذلك مع أطروحات مضادة لنيتشه (وإن كانت نيتشوية) ماذا يمكن أن نعمل في هذا المجال أو ذاك، لا أبحث عن أي شيء آخر، ولكنني أبحث عن هذا بحق" ⁽¹⁾.

من هذا المنطلق فإن الطابع النيتشوي في فلسفة "فوكو" يبدو جلياً، سواء من حيث مناخها الإشكالي وجهازها المفاهيمي، أو من حيث تجسيدها في أبحاث تحليلية مفصلة تتناول ميادين بحث جينياالوجي. إذ أن "نيتشه" بالنسبة لفوكو ليس مجرد فيلسوف معاصر، وصاحب منهج جديد في التأويل

⁽¹⁾ السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1994، ص69.

ساهم في صياغة أسئلة الفلسفة ورهاناتها وأعاد بنائها فحسب، بل يُعد أحد الثلاثة الذين قلبوا جذريا نظام التأويل ذاته في الفكر الغربي إلى جانب كل من ماركس *Karl Marx* (1883-1818) وفرويد *Sigmund Freud* (1939- 1856)، حيث يقول " فوكو": " إن ماركس وفرويد ونيتشه، لم يضيفوا دلائل جديدة للعالم الغربي، إنهم لم يضيفوا معنى جديدا على أشياء لم يكن لها معنى، وإنما غيروا في الحقيقة طبيعة الدليل وبدّلوا الكيفية التي بإمكان الدليل أن يؤول بها"⁽²⁾.

على هذا الأساس يرى " فوكو" -استنادا إلى "نيتشه" -أن الجينياولوجيا تعلمنا الاستخفاف بالحفاوة التي يحظى بها الأصل، فالأصل الأسى عبارة عن فائض ميتافيزيقي، ولذلك ينتقد "نيتشه" مختلف معاني الأصل، من معنى خلافة الإنسان إلى معنى السقوط، وسيادة الإنسان، ذلك أن وراء كل حقيقة: "مهما تكن راهنة ومقيسة، كثرة كاثرة من الأخطاء فلا يُصدقن أحد أن الحقيقة تبقى حقيقة، ونحن نرفع عنها الحجاب، فلدينا من التجارب المعيشة ما يكفي لإقناعنا بهذا الأمر"⁽³⁾. وبدل البحث في الأصل تعمل الجينياولوجيا على تعيين البدايات، يقول فوكو في هذا السياق: "لن تتأتى لنا إذن جينياولوجيا القيم والأخلاق والزهد والمعرفة من طريق البحث في الأصل والإهمال لكل مراحل التاريخ، بل من باب الوقوف الطويل والمتأنى عند البدايات بكل تفاصيلها واتفاقاتها، والاهتمام الدقيق بقُبْحها، وسُخْفها وانتظار بزوغ طلعتها من غير أقنعة وبوجه الآخر"⁽⁴⁾. إن البحث عن البداية هاهنا، يعني البحث في البدايات التي لا تدخل تحت الحصر، ولذلك فإن البحث الجينياولوجي هو البحث التاريخي، أو ما يسميه " نيتشه" بالجس التاريخي أو الفعلي وهو تاريخ مناهض لتاريخ المؤرخين والفلاسفة ولكل أشكال التاريخ الكلي، وفي نظر "فوكو" فإن الباحث الجينياولوجي، مشخص وفاحص للعلاقات بين مجالات ثلاثة هي: السلطة، المعرفة، والجسد في المجتمع الحديث، وهذا التشخيص يعتمد على جملة من المبادئ منها أن

- الجينياولوجيا تتنافى والطريقة التاريخية التقليدية.

- الجينياولوجيا لا تبحث في الجوهر الثابت ولا في القوانين الأساسية، ولا عن الغائيات الماورائية، بل تبين الانقطاعات والفواصل.

⁽²⁾ ميشال فوكو: جينياولوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2008، ص47.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 67.

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص68.

- الجينيولوجيا لا تهتم بالتطور أو التقدم، بل تبين التكرار كما لا تهتم بالعمق بل بالسطح، بالتفاصيل الصغيرة، وبالانتقالات عديمة الشأن⁽⁵⁾.

وعكس التأويل الذي يبحث في الأعماق، تقوم الجينيولوجيا تماماً كالأركيولوجيا على السطح، أي تحليل الخطاب كما هو ولا يعني السطح، "السطحية" أو "عدم الجدية" وإنما تغيير المنظور فقط، فعند "فوكو" توجد رؤية عميقة في كل شيء شريطة أن نراعي المسافة الملائمة ونختار جيداً زاوية النظر، أو كما يقول نيتشه: "إن المعاني العميقة والخفية، وقمم الحقيقة المتعذرة البلوغ، وبواطن الشعور الغامضة هي بدع صرف، ويمكن أن يحمل شعار الجينيولوجيا النقش التالي: ليكافح ضد العمق والغائية، والداخلية كما يمكن أن تحمل رايتها العبارة التالية: لنحتس من الاعتقاد بالهويات التاريخية فهي ليست سوى أقنعة لصالح الوحدة، فالحقيقة الأعماق التي من شأن الباحث الجينيولوجي الكشف عنها، هي سر كون الأشياء بلا جوهر، أو كون جوهرها قد تكون تدريجياً انطلاقاً من أشكال كانت غريبة عنها"⁽⁶⁾.

لهذا فإننا نلاحظ فرقا جوهرياً بين "فوكو" و"نيتشه" في التأويل أو التفسير، ففي الوقت الذي يرجعه "نيتشه" إلى الإنسان وإلى الحوافز السيكلولوجية، فإن "فوكو" يدمجه في استراتيجيات المعرفة والسلطة ولا ينسبه إلى بطل معين أو إنسان معين.

على ضوء ما سبق، يتبين لنا أن التقاطع النيتشوي الفوكوي يكمن في نبذ مسلمة الأصل كموطن للحقيقة، حيث أن فوكو يدفعنا إلى قلب معادلة هذا التاريخ المليء بالحقائق المزيفة "لأن وراء كل حقيقة مهما تكن راهنة ومقيسة كثرة كاثرة من الأخطاء، فلا يصدق أحد أن الحقيقة تبقى حقيقة ونحن نرفع عنها الحجاب"⁽⁷⁾؛ لأن أي حقيقة هي في الأصل نوع من الخطأ عمل التاريخ على التأصيل لها وإثباتها، تاريخ خاطئ يحمل اسم الحقيقة، ظل يوهم الإنسان بخطابات جاهزة يُسلم بها دون أدنى نقد أو تحليل.

يتضح إذاً أن الجينيولوجيا شكلت بالنسبة لفوكو المدخل الأساسي لسلسلة الأبحاث الأركيولوجية لتأويل مختلف الخطابات والممارسات الخطابية، فلكي تكتمل المهمة التي أوكلها لنفسه، كان لزاماً عليه تبيين وتعزيز أبحاثه الأركيولوجية، بتدعيمها ببعض اللمسات الجينيولوجية، المستوحاة من نيتشه،

⁽⁵⁾ الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، ط1، 2000، ص128-129.

⁽⁶⁾ ميشال فوكو: جينيولوجيا المعرفة، مصدر سابق، ص69.

⁽⁷⁾ المصدر نفسه، ص67.

حيث يعترف "فوكو" أنه كان لزاما عليه أن "يُنشئ بين الوصف النقدي والوصف الجينيالوجي نوع من التناوب والتآزر والتكامل"⁽⁸⁾.

إن "فوكو" سار في تيار الفلسفة النيتشواية سواء من حيث الموضوعات أو المفاهيم المستعملة، أو المنهج المستخدم، أو الهدف المنشود، المتمثل أساسا في تقويض مختلف البنى الميتافيزيقية ومجاورتها على غرار ما قام به هيدجر- دريدا- دولوز، ومختلف أقطاب الفلسفة النقدية المعاصرة، أملا في الانفلات من القبضة النسقية التي فرضتها الفلسفة الهيجلية ومحاولة لإحياء الذات التي أفل وجودها الأصيل.

ثانيا: التشابه مبدأ التأويل في عصر النهضة (ق16):

يقول "فوكو" حتى نهاية القرن السادس عشر لعب "التشابه" دور الباني في المعرفة الثقافية الغربية، فهو الذي قاد في جزء كبير تفسير النصوص وتأويلها، وهو الذي نظم لعبة الرموز، وسمح بمعرفة الأشياء المرئية واللامرئية وقاد عن تمثيلها وتصورها"⁽⁹⁾، إن "فوكو" يرى أن المعرفة في هذه الحقبة محكومة بالتشابه، والنظرة الساذجة والدهشة أمام ظواهر العالم، فلقد كانت عبارة عن "خليط من الكلمات والأشياء يسبح في وسط كوني مقدس ومتشابك العناصر، كل عنصر فيه يسمح بالمرور إلى الكل، كما يسمح إلى أي عنصر آخر، وهنا تتجلى ظاهرة المشاركة كما يظهرها التماثل"⁽¹⁰⁾، يقول فوكو: إن المفهوم الذي كان سائدا في ثقافة العالم آنذاك لم يكن سوى مفهوم التشابه والواقع – كما لاحظ مؤرخو تلك الحقبة – أن ما كان يمثل الشغل الشاغل لرجال عصر النهضة، إنما هو البحث عن أوجه الاتفاق بين المظاهر المختلفة، والعمل على اكتشاف أمارات التشابه بين الأنظمة المتباينة، و"فوكو" يحصر أنواع التشابه في مظاهر أربعة، عبارة عن قواعد معرفية تنفرع عن مبدأ التشابه، تتمثل في التوافق أو التلاؤم والتناسب (convenance) القائم بين الأشياء من خلال توافقها وتجاورها، والتنافس أو التباري (émulation) القائم بين الأشياء، حيث تكون متشابهة دون أن تسير جنبا إلى جنب، ثم التماثل (analogie) بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وهو يشير إلى التساوي أو التعادل بين علاقات أو روابط متعددة، وأخيرا التعاطف (sympathie) ويشير إلى عمليات التجاذب والتنافر التي تكفل للكون الاحتفاظ بهويته، حيث يبقى على ما هو عليه"⁽¹¹⁾.

صحيح أن هذه القواعد الأربع تحدد عوامل التشابه، إلا أنها لا تكشفها للعيان إذ أن عملية الكشف تقوم بها ضروب من العلامات أو الرموز المرئية التي يناط بها رفع الحجب عن العلاقات الخفية أو الكامنة بين الموجودات، ومن ثم يكون مبدأ التشابه، من حيث هو الصيغة المعرفية للقرن السادس

⁽⁸⁾ ميشال فوكو: جينيالوجيا المعرفة، مصدر سابق، ص 37.

⁽⁹⁾ ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة سالم يافوت، مركز الانماء القومي، لبنان، دط، 1990، ص 39.

⁽¹⁰⁾ المصدر نفسه، ص 53.

⁽¹¹⁾ زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، مكتبة مصر، الفجالة، دط، 1990، ص 126.

عشر، ظاهراً بعلاماته ورموزه، وغير ظاهر، إذ أنه لا يخضع للإدراك، إلا بواسطة علامات التشابه التي يحتاج النفاذ إلى كنهها تقنيات خاصة للتفسير أو التأويل، ويقول "فوكو" في هذا الصدد: "إن القرن السادس عشر قد جمع بين علم للعلامات (سيمولوجيا) وبين فن التأويل (هرمينوطيقا) في صورة من التماثل والتشابه، بحيث أصبح البحث عن المعنى هو إلقاء الضوء على المتشابهات، والبحث عن قانون العلامات هو اكتشاف الأشياء القابلة للتشابه، من ثم يكون فن التأويل هو نحو الموجودات أو الكائنات"⁽¹²⁾.

وعلى العموم، فإن هذه التقنيات المعرفية لا تتيح إلا ضربين من المعرفة هما السحر والعلم التراكمي (أو التجميعي) *érudition*، فالسحر هو فن التأويل الذي يبدأ من العلامة، وينتهي إلى الشيء المرموز إليه، والعلم التراكمي يردنا أيضاً إلى الطبيعة، ولكن من خلال كنز المعلومات التي تضافر على تجميعها القدماء⁽¹³⁾، أي أن المعرفة في (ق16) تتكون من خليط من المعارف العقلية والسحرية، ومن تراث قديم لذلك فإن بنيتها المعرفية هشة، يتقاطع فيها الماضي بالمستقبل ويغلب عليها التأويل نتيجة وضعية الإشارة أو العلامة، والعلاقة بين الإشارة والشيء أي الدال والمدلول.

من هنا كانت اللغة هي الموضوع الأساسي في معرفة عصر النهضة، وهذا ما سمح بسيطرة التأويل على علوم عصر النهضة، هذه العلوم التي يتخذها "فوكو" مقدمة ومدخلا لدراسة الحقبة الثانية فيما بعد، فلقد كان التشابه الموجود بين العلامات والأشياء هو القضية الأساسية في كتاب "الكلمات والأشياء" إذ بحث فيه عن تاريخ هذا التشابه وما طرأ عليه من تغير، خصوصاً وأن هذا التحول الذي طرأ على النظام إنما يكشف عن تحول في العلاقة بين "الكلمات والأشياء" أو بين اللغة والوجود.

وكان نتيجة ذلك أن أحيطت الكتابة بقيمة جد مميزة حظرت للترباط الموجود بينها وبين ما تعبر عنه من أشياء، وسبب ذلك المكانة التي احتلها عامل التشابه حيث يرى "فوكو" أنه: "واحد من الأحداث الكبرى في الثقافة الغربية... والأولوية التي أعطيت لتأويل النصوص الدينية على تقاليد الكنيسة وسلطانها العلمية، كل هذا يشهد على المكانة الأساسية التي احتلتها الكتابة في الغرب"⁽¹⁴⁾. لقد حظيت الكتابة بمكانة جد خاصة في عصر النهضة، هذا ما أدى إلى بروز التأويل كمنهج أساسي في فهم النصوص وخاصة الدينية منها، فالمهمة الأساسية التي أسندت للغة، تمثلت في فهم مختلف أنواع الخطابات

⁽¹²⁾ محمد علي الكردي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص 278-279.

⁽¹³⁾ المرجع نفسه، ص 279.

⁽¹⁴⁾ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 54.

وتأويلها وشرحها، وهذا ما أدى إلى بروز مشكلة المعنى في قراءة النصوص، حيث اختلفت القراءات والمعاني المعطاة للنص الواحد، فانبثق عن هذا التعدد للمعاني خطاب جديد سمي بالخطاب الشارح لأن الخاصية الجوهرية للمعرفة في هذه الفترة لم تتمثل في الرؤية ولا في البرهان، وإنما اقتصر على ممارسة النشاط التأويلي على مختلف النصوص بما فيها النص المقدس.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها، هي أن اللغة في عصر النهضة لم تكن سوى تمثيلات دلالية للأشياء الموجودة في العالم الطبيعي، بالإضافة إلى اعتماد التأويل والشرح كمنهج فك الغموض الذي يكتنف النصوص بهدف فهمها وشرحها، ونتيجة لهذا الواقع المعرفي، لم تنفصل اللغة أبداً عن السياق الثقافي، بل كانت وجهاً هاماً من أوجه المعرفة في تلك الحقبة، يقول عنها "فوكو": "إننا نرى أن تجربة اللغة تنتمي إلى الشبكة الطبيعية بمعنى الكشف عن نسق التشابهات التي تجعلها متقاربة وتضامنه فيما بينها"⁽¹⁵⁾.

لقد ظل التشابه هو المقولة المحورية في نظام المعرفة الغربية حتى نهاية القرن السادس عشر، وهو الذي حدد مجال تأويل النصوص وتنظيم الفضاء الرمزي، وتسمح بمعرفة الأشياء المرئية والخفية وتوجه وتقود عملية التصور والتمثيل باعتبارها تكراراً دائماً وتمثلاً مستمراً.

ثالثاً: التفسير بديلاً للتأويل في العصر الكلاسيكي (ق 17-18)

تمتد الحقبة الكلاسيكية من منظور فوكو، من سنة 1660م إلى سنة 1810م، وتقطع مع إبستمية عصر النهضة لتؤسس إبستمية جديدة هي إبستمية التمثيل أو التصوير، فمع بداية القرن السابع عشر يكف الفكر عن التحرك في إطار التشابه الذي يرتبط بالوهم وذلك تحت تأثير نقد كل من "فرنسيس بيكون *Bacon Francis* (1561- 1626) " و"رينيه ديكارت *René Descartes* (1596- 1650)"⁽¹⁶⁾. فالتشابه الذي كان لمدة طويلة المقولة المركزية في نظام المعرفة باعتباره في آن واحد شكلها ومضمونها، أصبح معزولاً واستبعد من مجال الفكر العلمي ليلتقطه عالم الشعراء والمجانين، فالشاعر هو الكائن الفريد الذي يصير عن طريق الكناية والاستعارة على تجاوز اللغة المجردة للعلامات لالتقاط لغة التشابه الأولية الكامنة في قرارة الأشياء، والمجنون هو الكائن الذي لا يقل عنه غرابة، والذي ينتهي إلى الخلط بينها جميعاً بسبب تكاثر التشابهات بين العلامات ووفرتها⁽¹⁷⁾. وهذا أصبح التشابه مجالاً مفتوحاً للخدع

⁽¹⁵⁾ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 57.

⁽¹⁶⁾ الزواوي بغورة، مرجع سابق، ص 163.

⁽¹⁷⁾ محمد علي الكردي، مرجع سابق، ص 280.

والأوهام، بل أصبح فرصة للخطأ والخطر الذي يجب تجنبه؛ ويعود الفضل في ذلك إلى "ديكارت" الذي حسم الموضوع نهائياً، بإقصائه أداة التشابه من الساحة المعرفية لاعتماده على النموذج الرياضي في دقة ويقين النتائج المحصل عليها بفضلها، وعلى ذلك يحدد "فوكو" الميزة الأساسية لإبستيمي العصر الكلاسيكي، المتمثلة في النقد الذي مورس على كل البنى المعرفية، أين كان للغة النصيب الأوفر منه.

نتج عن هذا الانعطاف المعرفي، أن تحول الاهتمام من دراسة أوجه التماثل بين الأشياء، وهي الميزة التي شكلت المحور الأساسي لإبستيمي عصر النهضة، إلى دراسة العلامة في العصر الكلاسيكي، لذا أصبحت الإشارات ذات أهمية بالغة مقارنة بما كانت عليه في السابق، "فقد كانت فيما مضى وسائل معرفة، ومفاتيح من أجل المعرفة، وقد امتدت الآن لتشمل التمثيل (التصور) أي للفكر بأجمعه، فهي تسكنها لكنها تجوبه في كل امتداده، فما أن يكون تمثيل مرتبط بآخر، وتمثل في ذاته، هذه الرابطة تكون هناك إشارة"⁽¹⁸⁾. بمعنى أن اللغة لم تعد كما في السابق سمة الأشياء، ولا هي تحمل توقيعها، وإنما أصبحت أداة التصرف في الأشياء، وتعبئتها والتقريب فيما بينها ومقارنتها ببعضها ببعض كما أنها عنصر التركيب فيما بينها حسب جدول شامل من الهويات والاختلافات.

وكما كان علم العلامات يلتقي خلال القرن السادس عشر، بفن التأويل عبر مبدأ التشابه، فإن هذا العلم نفسه سوف يلتقي في العصر الكلاسيكي بتقنية التفسير مباشرة بفضل القوة التمثيلية البحتة المنوطة به، ولا شك في أن غياب أي نوع من الغوص بين الدال والمدلول في الفكر الكلاسيكي سيشكل سمته المتميزة بالنسبة للفكر الغربي الحديث، وذلك بالقدر الذي سيحتاج فيه هذا الأخير إلى نظرية كاملة للدلالة لتفسير الفجوة القائمة بين الدال والمدلول التي يناط بها عمل الشعور ونشاطه⁽¹⁹⁾.

لقد حملت اللغة في العصر الكلاسيكي تصوراً مخالفاً عن الحقبة السابقة، إذ توقف الفكر عن التحرك وفق نموذج التشابه والمحاكاة، فظهر بديل جديد باللغة التي انفصلت عن ما هو مادي، بمعنى أنها لم تعد جزءاً من العالم، فبرز مفهوم الخطاب كعامل محوري في التصور اللغوي، يقول "فوكو": "إذا كان عصر النهضة قد توقف عند هذه الواقعة الخام، من أن ثمة لغة في سماكة العالم فهناك حروف مكتوبة مختلطة بالأشياء أو تجري تحتها أحرف أولى من الكلمات موضوعة على المخطوطات أو على أوراق الكتب وكل هذه العلامات المسلحة كانت تستدعي لغة ثانية، لغة الشرح والتفسير، لتجعل اللغة التي تنام فيها تتكلم وتغدوا متحركة، إن كينونة اللغة تسبق ما يمكن أن تقرأه فيها الكلمات التي تجعلها

⁽¹⁸⁾ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 75.

⁽¹⁹⁾ محمد علي الكردي، مرجع سابق، ص 282.

تردد صداها"⁽²⁰⁾، فالتصور اللغوي في عصر النهضة لم يكن يعطي الجديد في تعامله مع النصوص، لأن ماهية اللغة سابقة في الوجود عن المعنى الذي يمكن أن يتضمنه النص، في حين أن هذه الرؤية سيعتريها تغير مطلق في العصر الكلاسيكي بأنها "ليست موجودة، وإنما هي تعمل، فكل وجودها يحتل مكانة في دوره التمثيلي (التصوري) ويتحدد بدقة، وينتهي إلى أن يستنفد نفسه فيه"⁽²¹⁾.

أدى هذا التحول إلى دراسة العلامة فأصبحت الإشارة ذات أهمية باللغة مقارنة بما كانت عليه في السابق، فلقد تغير مفهوم العلامة اللغوية، واستقلت عن التصور السائد، هذا ما أنتج تحولاً في جدلية العلامة بين اللغة والفكر، فلم يبقيا ظاهرتين متميزتين عن بعضهما البعض بل أصبح هناك إلتحام بينهما كوحدين لإنتاج المعرفة بالموضوعات عن طريق التطابق الذي يحكم وحدتي الدال والمدلول.

كما أن اللغة في العصر الكلاسيكي كانت محل نقد مورس عليها، واستنطقها كما لو كانت وظيفة محضة، مسائلًا إياها عن حقيقتها، عن صدقها أو كذبها، عن شفافيتها أو غموضها معتمداً في مهمته الجديدة على أربع صور أساسية، يرى "فوكو" بأنها مستويات جوهرية للنقد في العصر الكلاسيكي هي: أ-المستوى الفكري: المتجسد في نقد الكلمات، فلبناء معرفة لا بد من نقد الموروث والقديم، لأنه من "المستحيل بناء علم أو فلسفة مع المفردات الموروثة"⁽²²⁾.

ب-المستوى النحوي: حيث شمل هذا المستوى النحو بشكل عام مادامت اللغة قد استقلت بذاتها. ج-المستوى البنائي: اتجه هذا المستوى من النقد إلى فحص الأشكال البنيانية، تحليل العبارات أي أنماط الخطاب مع القيم التعبيرية.

د-المستوى التأويلي: ويعتبره "فوكو" أهم المستويات على الإطلاق، لأن التأويل أخذ في الاستقلال عن المنهج التقليدي في قراءة النصوص وتحليلها⁽²³⁾.

وفي مجمل القول فإن اللغة في العصر الكلاسيكي تنصلت من التشابه الذي أُسرت داخله من خلال شكلها أو تجسيدها لخطاب معين، هذا الأخير الذي يرتبط كل الارتباط بالمسائل النحوية، التي تُعتبر مجالاً جديداً للغة في هذه المرحلة، فقد ظهر علم النحو العام الذي يختلف تماماً عن النحو المقارن، فهو

(20) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 86.

(21) ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 86.

(22) المصدر نفسه، ص 87.

(23) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

لا يحمل على عاتقه مهمة المقارنة بين اللغات المختلفة ولا يستعملها كموضوع له ولا كمنهج "بل هدفه هو إظهار الوظيفة التمثيلية للخطاب"⁽²⁴⁾.

ثالثاً: التأويل المعاصر في القرن التاسع عشر:

يؤكد ميشيل فوكو، أننا ابتداء من القرن التاسع عشر عدنا إلى الاعتقاد، بأن الحركات الخرساء والأمراض وكل الأشياء التي تضحّ من حولنا يمكنها أن تتكلم. ونحن نُصغي أكثر من أيّ وقت مضى إلى هذه اللغة الممكنة، محاولين أن نعثّر من وراء الكلمات على حديث أكثر أهمية، بل إننا ربما ذهبنا في ذلك مدى أبعد، فغدونا نرى الأهمية الكبرى بالضبط فيما يبدو بعيداً عن الأهمية وعن المعنى؛ إلا أننا لم نعد نقصد بهذه العودة إضفاء معانٍ جديدة على أشياء لم يكن لها معنى، مثلما كانت عليه الأمور فيما سبق. وإنما عدنا إلى التأويل لنغيّر طبيعة الدليل، ونبدّل الكيفية التي كان يُؤوّل بها. فلم يعد الأمر يتعلق بالبحث عن التناغمات والتشابهات التي كانت تستقطب الإبيستيمي الكلاسيكي. والأهم من ذلك، أنّ التأويل لم يعد "تفسيراً" وبحثاً عن معنى خفيّ، لم يعد كشفاً عن باطن، وتقصّياً لمعنى أول، واستقصاء.. لأصول، بالمعنى الشرقي والكرونولوجي، وإنما صار يعني إعطاء أولويات وأسبقيات لمعنى على آخر⁽²⁵⁾.

في القرن التاسع عشر (الابستيمي الحديث) انزاح التمثيل عن الساحة المعرفية، وعُوض بنموذج مغاير وهو فقه اللغة أو الفيلولوجيا (philologie)، وهو نتيجة حتمية للتغيرات التي طرأت على مستوى التحليلات اللغوية، ونتيجة الإفرازات الإعرابية التي أثرت بشكل كبير على النحو العام، لقد تغير المجال والوظيفة اللغوية، فاستولت اللغة في العصر الحديث -حسب فوكو-، تماماً على المستوى التمثيلي ما أدى إلى ظهور وظيفة تعبيرية لها، تمثلت في القدرة على اختراق النصوص باختلافها، فاحتلت بذلك مكانتها في مجال الدراسات الإنسانية، نظراً للدقة التي تميزها، ولم تعد قدرة اللغة تقاس بمدى فاعليتها في الكلام فحسب "بل بمقدرتها على إيضاح وترجمة إرادة الناطقين بها"⁽²⁶⁾؛ هذا ما أدى إلى انفصال اللغة عن المستوى الحضاري ومعارفه المنتجة وأخذت في الارتباط بروح الأمة المنتجة لتلك الحضارة، مما يعني أن اللغة لم تعد تعبر فقط عن المستوى المعرفي أو العلمي المنبثق عن حضارة ما، بل ارتبطت بالعناصر الفاعلة في بناء الحضارة المتمثلة بالدرجة الأولى في الإنسان، فأصبح هنالك نوع من التداخل بين الحقل الإنساني واللغوي، لأن اللغة لم تعد فقط تجسد الإنجازات الحضارية في مستواها المادي،

⁽²⁴⁾ الزواوي بغورة، مرجع سابق، ص 60.

⁽²⁵⁾ عبد السلام بنعيد العالي: لا نهائية التأويل المعاصر، <https://www.mominoun.com/articles>، نوفمبر 2020

⁽²⁶⁾ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 243.

بل غدت تهتم بالذات من خلال لغتها ولسانها الناطقة به. ولأن الظاهرة الإنسانية تتميز بالتعقيد والتداخل بين مختلف تفاصيلها، كانت اللغة بمثابة الآلية التي يمكنها اختراق هذا التعقيد وتبديد تلك الضبابية التي تكتنف الذات، وبناء عليه "تُظهر اللغة من خلال هندسة نموها كله، الإدارة الأساسية التي تشد الشعب إلى الحياة وتمنحه قدرة النطق بلسانه الخاص به وحده"⁽²⁷⁾.

على هذا الأساس تغير شكل اللغة في القرن التاسع عشر، كما كانت عليه في العصر الكلاسيكي فأصبحت مفتوحة أكثر على ذاتها، كما لم تعد تندرج ضمن مجال النحو العام بل أصبحت تدرس ضمن إطار النحو المقارن، الذي يهتم بمعالجة اللغات جميعاً على أساس تزامني لأن كل اللغات متساوية من حيث قيمتها وأهميتها. هذا التحول في شكل ووظيفة اللغة أدى إلى تحول معنى التأويل راهناً، وذلك لبروز مناهج جديدة في قراءة النصوص نظراً للرمزية السائدة، وهو ما تجسد في أعمال فرويد، ونيتش، وماركس⁽²⁸⁾، لقد أصبح التأويل، انطلاقاً من هؤلاء المفكرين الثلاثة الذين نتحدث عنهم مهمة لا نهاية لها.

والحق أنه كان كذلك حتى خلال القرن السادس عشر. ولكن العلامات كانت تحيل إلى بعضها بعض لسبب بسيط وهو أن التشابه لا يمكن أن يكون إلا محدوداً. وابتداءً من القرن التاسع عشر أصبحت الدلائل تترايط فيما بينها لتشكل سلسلة لا نهاية لها، ولا يؤتى على نهايتها لا لكونها تقوم على تشابه عديم الحدود بل لأن هناك انفتاحاً وفوهة لا يمكن أن تنغلق.

إن عدم اكتمال التأويل وقابليته الدائمة للفحص، وكونه يظل دوماً تأويلاً معلقاً، كل هذا نجده بصفة متماثلة سواء عند ماركس أو نيتشه أو فرويد وذلك في صورة رفض للبداية. فماركس كان يرفض الحديث عن حياة (حي بن يقظان)، ونيتش كان يعطي أهمية شديدة للتمييز بين البداية والأصل والفصل بينهما، أما فرويد فإنه كان يلح على الصبغة اللامكتملة للطريقة التراجعية التحليلية⁽²⁹⁾، وحسب فوكو فإن سمة اللانهاية للتأويل المعاصر تتجلى في تجربة نيتشه وفرويد أكثر منها عند ماركس، وتتمثل هذه التجربة في أن الإغراق في التأويل يؤدي إلى الدنو من منطقة يعتبرها فوكو خطيرة، منطقة تختفي فيها ذات المؤول، وبما أن هذه المنطقة لا محدودة وغير معروفة، فإن التأويل هنا يصطبغ بصبغة اللانهاية، وهي خاصية أساسية في التأويل.

⁽²⁷⁾ ميشال فوكو، الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص 243.

⁽²⁸⁾ الزاوي بغورة، مرجع سابق، ص 69.

⁽²⁹⁾ ميشال فوكو: خصائص التأويل المعاصر، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، <https://modernitysite.wordpress.com/2016/10/15>

إن لانهائية التأويل المعاصر وعدم اكتماله مردّه سببين رئيسيين: أولهما هو عدم وجود عنصر أول يصل إليه التأويل وينطلق منه، لأن العناصر كلها تستدعي تأويلاً، أي أنه لا يوجد موضوع من الموضوعات إلا وقد أُول من قبل. وبذلك تكون العلاقة بين التأويل والموضوع علاقة عنف تستجدي التوضيح والكشف، فتكون مهمة التأويل الاستحواذ على تأويل سابق، فيقبله ويُقلبه ويُزل عليه ضربات عنيفة، كما يقول فوكو⁽³⁰⁾؛ وهذا العنف يُمارس في أكثر من اتجاه، إنه قوة ومقاومة، قوة تُسلط على ما قبله، ومقاومة توجّه إلى ما بعده. و"الما قبل" هنا، كما "الما بعد": ليس زمانياً ولا مكانياً، وإنما جنيا لوجياً، إنه يشير إلى القوة الكامنة خلف كلّ تأويل؛ فحرب التأويلات تجعل التأويل لا ينصبّ على تأويل آخر، وإنما على "المجهول الذي قام بالتأويل". فالتأويل، كما يقول نيتشه، ليس هو البحث عن الذي يعطي للأشياء قيمتها ومعانيها، بل عن الذي يسعى لأن يفرض على الأشياء معانيها و"طبائعها"، عن "من" يسمي الأشياء. ولا داعي إلى التأكيد أنّ هذا الـ "من" ليس ذاتاً فاعلة، وإنما هو نموذج، أو عنصر في نموذج⁽³¹⁾؛ ولعل ذلك المعنى الذي يعطيه نيتشه للكلمة "سيكولوجيا".

أما السبب الثاني، فإن التأويل يجد نفسه مرغماً على أن يؤول ذاته إلى ما لا نهاية، وأن يتناول ذاته من جديد بصورة دائمة، لهذا يكون التأويل -من جهة- موجهاً لمن قام به، فحسب فوكو "نحن لا نؤول المعنى الذي يوجد في المدلول، وإنما نؤول ذلك الذي قام بالتأويل، فليس مبدأ التأويل إلا المؤول ومن جهة أخرى يؤول ذاته على الدوام، لهذا فإن زمن التأويل اللانهائي يكون دائرياً، إذ أن اللانهائية تمنع عن زمن التأويل المعاصر أن يكون زمن الأجل المحدود، لكن لا يعني ذلك أنه زمن الجدل الذي هو زمن خطي تقدمي، فزمن التأويل المعاصر زمن دائري، زمن التكرار والعود الأبدي الذي لا يعني عودة المطابق، هكذا فإن ما يضمن حياة التأويل هو ألا نؤمن إلا بوجود تأويلات، وهذا ما يميّز التأويل المعاصر عن التأويل الميتافيزيقي إذاً، هو أن الأول لا يخوض عملية التأويل، لأن هناك علامات أولية غامضة، وإنما لأن هناك تأويلات سابقة. فلا تعود اللانهائية إذاً لكون التأويل ينصب على "مادة" صعبة المنال، عسيرة الفهم، وإنما بالأولى لأنه لا ينصب على "شيء". إذا لم يكن في استطاعة التأويل أن يكتمل فذلك لعدم وجود ما يُؤول⁽³²⁾.

(30) ميشال فوكو: خصائص التأويل المعاصر، مصدر سابق.

(31) عبد السلام بنعبد العالي: لانهائية التأويل المعاصر، <https://www.mominoun.com/articles>، نوفمبر 2020

(32) ميشال فوكو: خصائص التأويل المعاصر، مصدر سابق.

(33) عبد السلام بنعبد العالي: لانهائية التأويل المعاصر، مرجع سابق

إن التأويل المعاصر تأويل لا نهائي لأنه لا ينصب على علامات وموضوعات منعزلة عن الذات الإنسانية، وإنما ينصب على تأويل آخر متعنت يحاول أن يفرض ذاته، هكذا فإن التأويل يعلن الحرب على ما سبقه، كل هذا يجعل علاقة التأويل بغيره دوماً علاقة عنف وغزو واكتساح.

الخاتمة:

ختاماً فإن تحول معنى التأويل مرده بروز مناهج جديدة منذ القرن التاسع عشر في قراءة النصوص، إذ برز المنهج التأويلي بوجه مغاير عما كان عليه، فإذا كان مؤولوا عصر النهضة اعتبروا النص قاعدة مركزية للحصول على المعاني مع إغفال كلي للذات، فإنه في العصر الحديث أعطيت الأولوية للذات، التي تتجه نحو النص لإنتاج نص آخر أو اكتشاف معنى مخفي وراء النص الأصلي، يقول "فوكو": "كان الشرح في القرن السادس عشر ينطلق من المعالم نحو الكلمة الإلهية المقرونة فيه، أما التفسير الذي تكون في القرن التاسع عشر، فينطلق من البشر والله والمعارف، وما يكتشفه سيادة خطاب أولي، بل هو كوننا خاضعين سلفاً وقبل أي كلمة نتفوه بها للغة"⁽³⁴⁾، وانطلاقاً من الأسبقية الوجودية للغة على الموضوعات، أصبح للذات سلطة في التعامل مع النصوص، والنتيجة من هذا هو تعدد القراءات واختلافها؛ لهذا اتسم التأويل المعاصر باللانهائية، وهي سمة تنعكس على المكان الذي يحيا عليه، وعلى الزمان الذي يعيش فيه لأن العلامات في التأويل المعاصر لا تخضع لمنطق التشابه والتجانس، وإنما لمنطق التفاوت والاختلاف، وحسب بعد العمق الخارجي أو العمق السطحي، كما يصطلح عليه "نيتشه"، وهو ما يجعل التأويل المعاصر يبتعد عن الشرح والتفسير وكشف البواطن، وينفصل عن أحادية المعنى وأوليته، وينفتح على آفاق لا حصر لها، مما يجعله تأويلاً لا نهائياً. غير أنه لا ينبغي أن نفهم هذه اللانهائية وذلك الانفتاح في اتجاه المستقبل فحسب، وإنما حتى في الاتجاه المعاكس أي في الماضي بفضل تقنيات المنهج الأركيولوجي (الحفري) الذي تبناه فوكو.

قائمة المصادر والمراجع:

- (1) زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، مكتبة مصر، الفجالة، دط، 1990.
- (2) الزواوي بغورة: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشال فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، الكويت، ط1، 2000.
- (3) السيد ولد أباه: التاريخ والحقيقة لدى ميشال فوكو، دار المنتخب العربي، بيروت، ط1، 1994.
- (4) محمد علي الكردي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشال فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992.
- (5) ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، ترجمة سالم يافوت، مركز الانماء القومي، لبنان، دط، 1990.

⁽³⁴⁾ ميشال فوكو: الكلمات والأشياء، مصدر سابق، ص249.

(6) ميشال فوكو: جينياالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، المغرب، ط2، 2008.

مواقع الانترنت:

(7) عبد السلام بنعبد العالي: لا نهائية التأويل المعاصر، <https://www.mominoun.com/articles>، نوفمبر 2020

(8) ميشال فوكو: خصائص التأويل المعاصر، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، <https://modernitysite.wordpress.com/2016/10/15>